الأطباء في الأدب

وقع الأطباء في ألسنة الكتاب والشعراء من قديم الدهر، فمرَّة كانت أسماؤهم مقرونة باسم عزرائيل:

يمشي وعزرائيل من خلفه مشتمر الأردان للقبض!

ومرَّة كانت مقرونة بالفناء والهلاك:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وحيناً كانت هذه الأسماء ملزوقة بالجهل المركب:

قال حمار الطبيب موسى لو أنصفوني لكنتُ أركب

لأنني جاهل بسيط وراكبي جاهل مركب!

ولقد سلم الأطباء من شر المتنبي لما أصابته الحمى وهو في مصر، فألهاه وصفه الدقيق للحمَّى عن بسط لسانه فيهم، وإذا كان الطبيب الذي داواه قد جهل شيئاً فقد جهل طبائعه:

يقول لي الطبيب أكلت شيئاً وداؤك في شرابك والطعام

وما في طبه أني جواد أضرَّ بجسمه طول الجمَام!

قد تشتمل كتب الأدب على أكثر من هذا الشعر في الأطباء، إلا أنه لا يهمني في هذا المقال أن أستقصي أقوال الكتاب والشعراء في

الأطباء، وإنما الذي يهمني أن أشير إليه أن الأطباء لم يتملصوا من تهكم المتهكمين، والأدب الذي لم ينفلت من سلطانه شيء، لم تنفلت منه هذه الطبقة من الناس فلم يخل من صلة بالأطباء إلاَّ القليل أو أقل من القليل. فمن منَّا لم يلجأ إلى طبيب، من منا لم يمدح طبيباً ولم يذم آخر، من منَّا لم يؤلمه تدجيل فئة من الأطباء، ولم يرفع ذكر فئة آخرين؟ فالأطباء لهم نصيب وافر من أحاديثنا في مجالسنا، إلا أني أريد أذكر في هذا المقال قليلاً من نصيبهم من أقلام بعض كتاب الإفرنجة، وحسبي منهم كاتبان: مونتان وفولتير.

عقد «مونتان» أحد كتاب العصر السادس عشر فصلاً في كتابه الخالد، تكلم فيه على قانون الإرث؛ فالناس يرثون تقاطيع الوجوه والأخلاق من أجدادهم، ويرثون الاستعداد للأمراض التي وقع فيها هؤلاء الأجداد، وقد ورث «مونتان» من أبيه وجدّه وأبي جده وجع الحصى في الكليتين، وورث مع هذه الحصى احتقار الطب فقال:

ليعذرني الأطباء بعض المعذرة، فقد ورثت بغض طبهم واحتقاره..

ولم يكن الطب في أيام «مونتان» إلا عبارة عن جهل وعن تناقض، وعن تردُّد، وهذه هي الأسباب التي حملت هذا الكتاب الخالد على التعرض للأطباء، وقد عانى في أواخر آيامه عذاباً غليظاً، ولا يتسع هذا المقام لبيان ما ينشأ عن استقرار الحصى في الكلية من العواقب، ولم يهتد الطب في أيام «مونتان» إلى تفتيت الحصى، فلم ينج هذا المسكين من أيدي الأطباء في عصره، ولكنه لم يبلع ما كانوا يصفونه له من المفتتات، فلم يُغض على تدجيل الأطباء، فقد سلقهم بلسان من حديد، وحاول أن يأتي بالبراهين على بطلان فنهم، وإليك جملة من براهينه، قال: «عاش والدي أربعاً وسبعين سنة، وجدي تسعاً وستين سنة، وأبو جدي ثمانين سنة بوجه التقريب من دون أن يفزعوا إلى أي طبيب كان».

وهو يتحدى الأطباء، فهل يستطيعون أن يدلوه على أي بيت كان، دخله الطب فاستطاع أن يذوق فيه طول الحياة ثلاثة من ذريته متعاقبون!

ما فائدة الأطباء في رأيه إذا كانوا عاجزين عن تطويل الأعمار؟ وأقبح من هذا أن الأطباء يجعلون الصحيح سقيماً حتى لا يجد فَلتاً من سلطانهم؛ فهو يقول: لماذا لا نستغني عن الطب ما دامت الأمم القديمة قد استغنت عنه وكانت صحتها حسنة.

عاش الرومان ستة قرون قبل أن ينشأ الطب فيهم، ولما عرفوا الطب وجرَّبوه طردوه من بلادهم على يد «كاتون القديم». فقد برهن «كاتون» على استغنائه عن الطب بعمره الطويل الذي امتد إلى خمس وثمانين سنة وبعمر زوجته التي بلغت أقصى الشيخوخة. ولئن لم تستغن عن الطب لقد استغنت عن الأطباء.

فكل شيء ينفع حياتنا إنما هو طب في رأي «كاتون».

على أن «مونتان» إن كره الطب فإنه لم يكره الأطباء، فقد قال: إني أجل الأطباء لا لحاجة إليهم، ولكن لحبي إياهم، فأنا أعرف فيهم كثيراً من الشرفاء فهم يستحقون المحبة، إني لا أنقم عليهم ولكني أنقم على فنهم!

هل كان «فولتير» أرأف بالطب والأطباء من «مونتان»؟

آمن فولتير بالطب ما دامت صحته جيدة، وقد زاد إيمانه به لما مرض ثم صحّ، وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة، ومدح الطبيب الذي داواه، وصح على يديه، فقد كان طبيبه لم يتخلَّ عنه طرفة عين، كان يراقب كل حركاته، ولم يصف له شيئاً دون أن يبين له سبب هذا الوصف، وقد نشأ له بعد البرء رأي وجيه في باب من أبواب الطب،

قال:

«يقول فلان: إن هذا الرجل قد نقه من مرضه بواسطة كذا.. وأنا مصاب بالمرض نفسه، فينبغي لي أن أستعمل الدواء ذاته الذي استعمله.. فكم من رجل مات بسبب هذا الرأي، لا يريد الناس أن يعلموا بأن الأمراض التي نقع بها تختلف باختلاف تقاطيع وجوهنا. فقد يرتطم المرء من حيث نجا غيره، ويهلك الإنسان من حيث سلم أخوه».

إلا أن «فولتير» لم يدم على هذه الآراء، فلما أصابته آلام شديدة، ولم يستطع الأطباء أن يشفوه منها، احتقر طبهم وتولى مداواته بنفسه، فتبع قواعد خاصة في شرابه وطعامه وأوصى أصدقاءه بهذه القواعد؛ فقد كتب إلى إحدى السيدات فقال: إتركي النهم والطب، فقد تركت الطب وصحتي حسنة. فأين مدحه لطبيبه القديم الذي داواه في شبابه، وأين مدحه للطب؟ على أنه لم يقاطع الأطباء دفعة واحدة، فقد كان يرجع إليهم ويستشيرهم، ولكنه لم يعمل بنصائحهم. كان يهتم بآرائهم وبحوادثهم، ولكنه لا يؤمن بأدويتهم، فلم يكن مريضاً يصغي إلى الطبيب، ولكنه كان فيلسوفاً يحكم ويستهزء، ولم يخلص من شره أبرع الأطباء، فالطبيب الفلاني شفى المريض من مرضه لأنه لم يصنع به شيئاً..

كان يشكو وجعاً في المعدة والأمعاء، فالدنيا في نظره لا تعدل معدة صحيحة، وقد كتب إلى سيدة ممعودة فقال: معدتك تشبه معدتي، لقد جربت الماء البارد والماء الحار، وجربت ضروب القواعد، الحسنة منها والسيئة، ووقعت في أيدي الدجاجلة والأطباء والطهاة..

فمن ذكره للأطباء في جنب الدجاجلة والطهاة يعرف القارئ مقدار رأيه في الطب والأطباء في آخر عمره!

وعلى الرغم من أوجاعه عاش أربعاً وثمانين سنة!

نزهة ثقافية

قد تكون ذكرى النزهة الثقافية التي أشرت إليها في عنوان هذا المقال أبلغ ذكرى رسخت في خاطري وأنا في القاهرة، فقد تفضل صاحب المعالي السنهوري بك وزير المعارف بدعوة رجال اللجنة الثقافية وطائفة من أفاضل مصر وفلسطين والشام إلى القناطر الخيرية في خلال هذا الشهر. لست أحاول في هذا المقال وصف نزهة كلها شعر، فالنيل في عظمته والسهول المنبسطة من حوله في محاسنها، وهندسة العقل البشري في توزيع الماء على ريف مصر شعر من أبلغ الشعر، إلا أني أتخطى الكلام على الشعر في هذه السطور، وأنسى هذا النشاط الذي ملأ جوانب نفسي وأنا على النيل، وهذه الموسيقى التي أدخلت السرور على قلبي، وهذه النوادر التي خرجت من أفواه الجماعة، وأحبس خاطري على أمر واحد وهو تقارب أذواق الحضور وشعورهم على تباعد أوطانهم وتباين طبائع هذه الأوطان.

لم يخطر ببالي من أدبنا العربي وأنا على ظهر الباخرة إلا عبارة واحدة صدرت عن إمام من أئمة هذا الأدب، فقد قال أبو منصور الثعالبي في كلامه على الصاحب بن عباد:

ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب، فكأن الثعالبي في قوله هذا يشكو ضيق اللغة ويضجر من عجزها عن تصوير بعض ما في نفسه، وهو المحيط بخصائص اللغة

والواقف على مجاريها ومصارفها والمتبحر في جلائها ودقائقها. أصحيح أن اللغة ضاقت عن تصوير أمر بسيط في نفس الثعالبي؟ قد يكون في هذه الشكوى شيء من المجاز، فالثعالبي لا يعجز عن الإفصاح عن علو محل الصاحب في العلم والأدب، وقد تمكن من الإفصاح عن علو محل شعراء أمثال المتنبي وأبي فراس. على أن المرء قد يعجز في بعض الأحوال عن تصوير شعوره وعاطفته، واللغة قد تخفي في بعض الأوقات مذاهبها في القدرة على هذا التصوير، ولكن موضوعي لا صلة له بضيق اللغة وسعتها، وإنما وقعت في خلدي عبارة الثعالبي من باب المقارنة لا غير.

لست أدري كيف تضيق اللغة عن وصف أدب أديب مهما تبلغ طبقته وقد استطاعت أن تجمع بين أذواق وعواطف، أصحابها من أوطان متباعدة ذات طبائع متباينة، أفتضيق اللغة عن الإطاحة ببعض دقائق أدبية وقد استطاعت أن تؤلف بين جماعات نشأوا في السهول والجبال والصحارى والأودية وعلى البحار؟ كلا ثم كلا، لم تضق اللغة عن هذا كله، فقد كنا على الباخرة من مصر وفلسطين ولبنان والشام والعراق، وطبيعة مصر غير العراق، وطبيعة العراق غير طبيعة مصر، وعلى الرغم من هذه الطبائع المتفاوتة كانت الجماعة على الباخرة كأنهم من بلد واحد، فقد تألفت أذواقهم وعواطفهم وشعورهم، فكأن رجل فلسطين يقذف بالفكاهة فيضحك لها رجال العراق والشام ولبنان ومصر، وكان رجل مصر يدفع بالنادرة فيهتز لها أبناء هذه البلاد كلهم. واللغة هي التي تؤلف بين سكان صحارى وجبال وأودية وبحار متسعة الأفياء، منبسطة الآفاق. ولكن ما لي ولسعة اللغة أو ضيقها في هذا المقام، فكل ما قيد ذهني في نزهتنا الثقافية أن اللغة هي التي تجمع بين الطبائع

المتفاوتة وأن للألفاظ في هذا الجمع سحراً أراني صادقاً إذا قلت ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عنه، وليست اللغة هي التي تعجز عن التقريب بيننا وإنما نحن العاجزون.

لقد تعودت وأنا في القاهرة أن أتردد إلى مقهى على ميدان الأوبرا، وكان يتردد إلى هذا المقهى فريق من طلاب العراق وجماعة من فلسطين، وقوم من مصر. فكان العراقيون في حلقة لا يخالطون غيرهم، كنت أسمع أحاديثهم وأشهد ضحكاتهم، ولكني لم أشهد في هذه الضحكات ما يضحكني، وقد يجوز أنهم لا يرون في ضحك أهل مصر ما يضحكهم. والسبب في هذه اللغة أيضاً، فإن الألفاظ التي يستعملها أهل العراق في مادة الضحك والإضحاك غريبة عن ألفاظ مصر والشام ولبنان، وقد تكون الألفاظ التي يستعملها أهل الشام في هذا الباب غريبة عن ألفاظ أهل العراق، فإذا وقعت هذه الغرابة تباعدت الأذواق بعض التباعد. ولكن لماذا كنا على ظهر الباخرة متقاربين في أذواقنا وشعورنا؟ السبب في هذا التقارب اللغة نفسها. كانت الجماعة على ظهر الباخرة أصحاب ثقافة، فألفاظهم فصيحة بعض الشيء، قد ارتفعت عن العامية، فكانوا متشابهين في الألفاظ، متقاربين في فهم مدلولاتها فلم تبعد أذواقهم بعضها عن بعض، فكلما بعدت اللغة عن العامية وقربت من الفصاحة ألفت بين أهلها. فلماذا نقرأ في هذا العصر بخلاء الجاحظ في مصر وفلسطين ولبنان والشام والعراق فنضحك لنوادر هذا الكتاب النفيس، وقد أتى عليه زمن غير قريب، ونتشابه في هذا الضحك ونتقارب في فهم أسرار الكتاب وفكاهاته وأعاجيبه، لماذا هذا كله؟ لأنا نشأنا على دراسة لغة واحدة فصيحة، فكان لألفاظ هذه اللغة عمل واحد في التأثير، فإذا ورد فيها ما يضحك ضحكنا وإذا ورد ما يبكي بكينا.

ولو كانت الألفاظ تتغير من حين إلى حين لكان لها في كل عصر عمل خاص لهذا العصر، فلو لم تكن ألفاظ الجاحظ هي الألفاظ الشائعة على أقلام بعض بلغاء كتاب العصر لما كان للجاحظ هذا النصيب من الخلود.

أفأراني خرجت عن موضوعي؟ ما أظن هذا، فكل ما أحببت ذكره في مقالي وقد فرغت لجنتنا الثقافية من أعمالها ولم يبق إلا تطبيق هذه الأعمال إنما هو الأمر الآتي: اللغة هي أبلغ أداة في وحدة الثقافة. لقد اشتمل مشروع معاهدة التعاون الفكري على أشياء كثيرة، ولكن اللغة تظل أقوى عنصر في هذا التعاون، فإذا استطاعت بعد سنين قريبة أو بعيدة أن ترتفع بعض الارتفاع عن مستوى عاميتها وأن تتصل بعض الاتصال بأفق فصاحتها بحيث تتقارب ألفاظ مصر وفلسطين ولبنان والشام والعراق وغيرها من بلاد العرب، إذا استطاعت هذا الأمر كان عملها حينئذ في التقريب بين أذواق الخاصة والعامة بليغ الأثر عظيم السلطان، فإذا جلس العراقي في مقهى الأوبرا وروى من نوادره ما يضحك ضحك لها المصري. إذا تمت وحدة الثقافة، وأرجو أن تتم، بطل هذا القول القديم: ليس الشامي للعراقي برفيق.

فاللغة على نحو ما قاله رئيس من رؤساء جمهورية فرنسا في خطبة بليغة. إنما هي وطن العقول، قد يموت الوطن وتبقى اللغة من بعده، انظر إلى التوراة، إنها لا تزال من ألفي سنة وطن اليهود الصحيح، وهذه لغة «هوميروس» فقد قامت مقام وطن اليونانيين المقهورين، فاللغة دين مثل أي دين كان، إنها مملكة العقل الذي لا يعرف حدوداً ولا موتاً، ولئن انقرضت آثاء الاغريق فقد ظل صوت «ديموستن» يملأ العالم بحذافيره!.

خطبة الحجاج في الكوفة

ما عرضت على ذهني أول خطبة للحجاج في الكوفة إلا تراءت لي في صاحبها أشياء غير بلاغته، لقد انكشف لي بعد تقليب النظر في هذه الخطبة السر في توفيق الحجاج من أول يوم ولي فيه العراق، فليس بالأمر الهين أن ينقاد الناس إليه في المسجد هذا الانقياد، ثم ينبسط سلطانه هذا الانبساط. فكيف خضع أهل المسجد خضوعهم الذي عرفناه، وكيف سكتوا سكوتهم الذي عهدناه؟ لقد انتدب الحجاج، لا بل لقد ندب نفسه إلى أمر تهيبه شيوخ بني أمية وخافوا خواتيمه. أفليس بالأمر العجيب أن يخرج عبد الملك إلى أصحابه ويقول لهم ثلاث مرات: ويلكم! من للعراق؟ فيصمت القوم، وينبري الحجاج فيقول: والله أنا لها يا أمير المؤمنين، فيقول له عبد الملك: أنت زنبورها، ويكتب إليه عهده!

ليس هذا كله بالأمر اليسير. فعلى أي شيء اعتمد الحجاج في الإقدام على أمر أحجمت عنه مشيخة بني أمية؟ وما هي العدة التي أعدته وهيّأته لمثل هذا الإقدام، وهو لو هفا فيه أقل هفوة لذهبت هفوته بحياته وبسلطان بني أمية في العراق؟

لو بُعث المؤرخون في يومنا هذا، وحاولوا النظر في سيرة الحجاج، ونقبوا عن أسرار توفيقيه من أول يوم امتد فيه ظله إلى العراق، ما أغفلوا العوامل النفسية في هذا التوفيق، مثل معرفته بطبائع الناس،

وتنويمه القوم ببلاغته وفورة شبابه، وحيطته لأمره، وأشياء كثيرة اختص بها في سياسته في العراق، لا مجال لذكرها في مثل هذا المقام، لأن الكلام على سر توفيقه من أول خطبة خطبها ليس إلا.

لقد قال الناس في الحجاج بن يوسف وأبيه ما قالوا، وأنشدوا شاهداً من الشعر على أن الحجَّاج وأباه كانا معلمين بالطائف، ولما قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف، أمرهم بشتم الحجاج، فقاموا يشتمونه فقال بعضهم: إنه كان عبداً زبَّاباً، قنور بن قنور، لا نسب له في العرب.

على أن فيلسوف المؤرخين وأعني به ابن خلدون، تعرض في مقدمته لنسب الحجاج وأبيه، ولأمر تعليمهما في الطائف، فوضَّح هذا الأمر أكمل توضيح، فقد نبه على أخطاء المؤرخين، ومن جملتها ما نقلوه من أحوال الحجاج، وأنا أباه كان من المعلمين، فذكر أن التعليم في صدر الإسلام وفي صدر الدولتين، الأموية والعباسية، لم يكن فيه شيء من الغضاضة، فقد كان أهل الأنساب والعصبية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، تبليغاً للخير، لا التماساً للمعاش، إذ الكتاب إنما هو كتابهم المنزل على الرسول منهم، وبه هدايتهم، والإسلام دينهم، قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم، لم يقعد بهم عن هذا التعليم شيء من كبرهم وأنفهم، ويشهد بذلك بعث النبي صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمون الناس حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين.

ولم يدخل التعليم في جملة الصناعات والحرف إلا بعد استقرار الإسلام؛ فاشتغل حينئذ أهل العصبية بالملك والسلطان، وشمخت أنوف المترفين عن التصدي للتعليم، فانتحله المستضعفون من الناس، وصار

منتحله محتقراً عند أهل العصبية والملك، والحجاج بن يوسف كان أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم، ومكانتهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في الشرف معلومة، فلم يكن تعليمه للقرآن للمعاش، وإنما كان على ما وصفه ابن خلدون في الكلام المتقدم.

وعلى هذا الوجه لم يبق شك في أن التعليم لم يحط من قدر الحجاج، أو من قدر أخيه أو من قدر أبيه؛ وكثيراً ما فخر الحجاج بأنه ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش. على أن هذا كله ليس ما أرمي إليه في الباب الذي أخوض فيه، فالذي أرمي إليه إنما هو الأمر الآتي: إني أرى في ممارسة الحجاج لصناعة التعليم سراً من أسرار نجاح سياسته، فقد مكنه هذا التعليم من الوقوف على الطبائع، والتغلغل إلى بواطن النفوس، وكشف الغطاء عن مواطن الترغيب والترهيب، وعن مواضع الغضب والرضاء، والطاعة والعصيان، وعن الزمن الذي تنفع فيه الشدة، والزمن الذي ينفع فيه اللين، فإن صلة المعلم بطلابه تمهد له السبيل إلى النفوس البشرية، فتصبح له ملكة خاصة في سياسة الناس، وفي استمالتهم وتنفيرهم، وفي استثارتهم وتسكينهم، وأمثال هذا كله. وليس معنى كلامي أن كل معلم يرزقه الله تعالى هذا الحظ من المعرفة، ففي المعلمين مغفلون كما في كل طبقة من طبقات الناس؛ ولكن رجلاً مثل الحجاج اختصه الله بمثل ما اختصه به من فضل السياسة زاده التعليم سعة في هذا الفضل. فلما ولي العراق وقذف في مسجد الكوفة بالخطبة التي قذف بها، وكأنها نار جهنم، كان عالماً بطبائع الناس، واقفاً على المذاهب التي ترهبهم وتفزعهم؛ ولولا معرفته هذه لما جرؤ على مثل ما جرؤ عليه في الكوفة، وأهل المسجد الذين سمعوا هذه الخطبة لم يكن هواهم في بني مروان، وما منهم رجل

جالس في مجلسه إلا ومعه العشرون والثلاثون من أهله ومواليه، فلم يتحرك أحد منهم!

إلا أن التعليم لم يكن السبب الأوحد في توفيق الحجاج، فإن بلاغة الحجاج كانت عاملاً من عوامل هذا التوفيق؛ ولم ينكشف تأثير الكلام في الجماهير انكشافه في عصرنا هذا؛ فإن أكثر رجال السياسة المبرزين في سياستهم هم أمراء البيان، ومن لم يكتب له نصيب من هذه البلاغة قل حظه من التوفيق في السياسة، والحجاج في هذا الميدان فارس في الرعيل الأول من الفرسان؛ فقد ذكروا عنه أنه إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه، ثم تكلم رويداً، فلا يكاد يسمع، ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه، ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد، وقال فيه مالك بن دينار: ربما سمعت الحجاج يخطب،ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق لبيانه وحسن تخلصه بالحجج، ولست أشك في أن شكله الشاذ كان له بعض التأثير في الجماعات، فضلاً عن بلاغته، فقد كان أخيفش العينين، مسلق الأجفان، أصك الرجلين.

فأول خطبة خطبها في الكوفة كان لها أبلغ أثر في توفيقه، ولقد تصرف في خطبته هذه تصرف العارفين بأسرار التأثير؛ فإن صعوده المنبر متلثماً، متنكباً قوسه، ثم جلوسه واضعاً إبهامه على فيه، ثم تكلمه رويداً، ثم تزيده في الكلام، ثم زجرته ـ كل هذا من الأمور التي ميلت الأنظار إليه. فالحجاج ملك عيون الناس قبل الشروع في الكلام، وهذا باب من أبواب البراعة؛ ولو خطب من فوره دون هذه الحركات كلها، لضعف سلطانه على القلوب؛ ولكنه أحب قبل كل شيء أن يمكن العيون منه، فلما تمكنت منه هذا التمكن، وغص المسجد بأهله حسر اللثام عن

وجهه، ثم قام ونحى العمامة عن رأسه، ثم انبعق في الكلام، وكان من أمره ما كان.

ولا ريب في أن الحجاج لما قذف بأوائل خطبته علم العلم كله أنه نوَّم أهل المسجد على تعبير عصرنا هذا، فسلبهم إرادتهم وشعورهم وتفكيرهم، وعرف أنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا في شيء من هذه الإرادة ومن هذا الشعور ومن هذا التفكير، فأخذ يلعب بهم كما يلعب الطفل بالتصاوير واستمر على طرازه من الشدة في الكلام والغلظة فيه دون أن يخشى خروج أحد عليه من أهل المسجد، فكان القوم قيد إرادته وقيد إشارته، يأمرهم فيأتمرون وينهاهم فيتناهون؛ وأكبر دليل على ذلك قوله لهم: يسلّم، عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام، فلما قال قوله هذا، قال أهل المسجد كلهم: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته! ولم يشغب عليه شاغب.

وإذا أضفنا إلى بلاغة الحجاج قوَّة شبابه عرفنا أن هذا الشباب عامل آخر من عوامل توفيقه، فإن الشيوخ يقيمون لجلائل الأمور أوزانها، فلا يقتحمون في الأغلب من أحوالهم في الذي يقتحم فيه الفتيان؛ وحجة ذلك أن عبد الملك بن مروان لما انتدب أصحابه إلى العراق تهيبوا الأمر وحذروه؛ فدم الشباب في الإقدام على عظائم الأمور غير دم الشيوخ. وقد كان الحجاج في أول ولايته العراق في مقتبل العمر، كان عمره ينيّف على ثلاثين سنة، وكان واثقاً بنفسه الثقة كلها، عالماً بأنه أمرُّ الكنانة التي نثرها عبد الملك طعماً، وأحدها سناناً، وأشدها مكسراً؛ ومع هذا كله فقد أخذ بالحيطة في أمر، فلم يقدم العراق على ما ذكره بعض المؤلفين في ثمانية رجال أو تسعة على النجائب؛ وإنما قدم الكوفة ومعه جيش، ولكنه لما بلغ القادسية أمر الجيش أن يقيلوا وأن يروحوا وراءه،

ودعا بجمل عليه قتب، فجلس عليه بغير خشبة ولا وطاء، وأخذ كتاب عبد الملك بيده، ولبس ثياب السفر، وتعمَّم بعمامته حتى دخل الكوفة وحده؛ ولم يدخل بغداد كما قال بعضهم، فإن بغداد من بناء المنصور، فلم تكن في أيام الحجاج؛ وعلى هذا لم يبلغ منه التهور أن يقدم العراق في ثمانية رجال أو تسعة، وإنما ترك جيشه في القادسية، وهي على أبواب الكوفة، فإن شباب الحجاج لم يمنعه عن حيطة الشيوخ، فهو أعقل من أن يجرؤ على العراق دون الاستعانة بالجيش، والعراق يومئذ جبل من نار!

أظن أن هذه الأمور إنما هي في مقدمة الأمور التي مهَّدت للحجاج سبيلاً إلى نجاح سياسته في العراق من أول يوم دخل فيه الكوفة. وقد بقيت أشياء كثيرة عن سياسته وعن أخلاقه لا يتسع لها هذا المقام، ولولا فضل هذه السياسة وهذه الأخلاق ما احتمله العراق عشرين سنة!

في عالم النفس

أشرتُ مرَّة إلى أن عظمة الأمم تتوقف على مقدار شيوع الروح العلمي في هذه الأمم، ومثلت بنموذج من استفاضة هذا الروح في الأدب الفرنسي، وقد أحببت في مقالي هذا أن ألمع إلى ذيوع الروح الفلسفي في هذا الأدب، فكما أن مستقبل البشرية متوقف على العلماء، فكذلك أمر الفلسفة، فإن الحاجة ماسة إليها في كل زمن، وإذا كان من الممتنع أن نعرف وجة الفلسفة في المستقبل، فليس من الممتنع على نحو ما قاله «فاكه» أن نعرف أن الفلسفة خالدة في كل عصر؛ إنها تقضي حاجة من حاجات العقل البشري، وتجمع المستنبطات العلمية في نظام من الأفكار العامة العظيمة، وتجتاز العلم فتبحث وتنقب على قدر الإمكان عن لغز الكون وسره، فلا الفلسفة ولا علم ما وراء الطبيعة ينطويان في يوم من الأيام؛ فالحياة كما قال «نيتشه» لا قيمة لها إلا من حيث أنها آلة المعرفة، ومهما تطمح البشرية إلى المعرفة الجزئية فإنها تظل شديدة التطلع إلى المعرفة الكلية، فلا تكل في سبيل الوصول إلى المعرفة، ولا تفتر رغبتها فيها.

للروح الفلسفي في أدب الإفرنجة مظاهر شتى.

فمرَّة يعرض كتابهم لنفس المرأة، فيمعنون في بواطن هذه النفس، حتى تتكشف هذه البواطن للعيون، كما فعل «بورجه» في روايته «أكاذيب»، فإنه لما قال في بعض مواطن هذه الرواية:

«من النساء طائفة لهن أسلوب سماوي في الإغضاء عن انبساطات ينبسطها الرجال في حضرتهن..»

كشف الغطاء عن حيلة خالدة من حيل النساء.

ولما قال في الرواية ذاتها:

«تشعر النساء بفرح عظيم إذا قلن في شيء من الابتسام حقائق لا يؤمن بها الرجال الذين يسمعونها منهن، فإنهن يحسسن في مثل هذه الحال بقليل من الخطر الذي يهز أعصابهن هزاً لذيذاً...».

عرض ملاحظة ثمينة في معرض حديث وفق فيه كل التوفيق.

ولما قال أيضاً:

«كلما قل نصيب استحقاق النساء للشفقة عليهن، ازدادت رغبتهن في خلق هذه الشفقة في القلوب، وإلهام هذه القلوب إياها..»

صورَّ طائفة يسيرة من روح المرأة في صورة جديدة.

لقد كان «بورجه» أستاذ الروايات الروحانية، إنه وصف النفوس وحالاتها ونشوءها وتحولها وصفاً قوياً تعمق فيه كل التعمق، ففي روايته «أكاذيب» وصف كيف يكون حب النساء المنصرفات إلى الملاذ، أو حب النساء المنخفضات في عصرنا هذا، وفي روايته «التلميذ» وصف ماذا تستطيع أن تنشئه العقيدة الفلسفية في النفس التي عزمت على أن تطابق بين فكرها وعملها، ففي هذه الرواية مائة وخمسون صفحة في التحليل، تكاد تكون أعجب ما كتب في هذا الباب.

ومرَّة يعرضون لتصوير غرائز النساء اللواتي يندفعن في أعمالهن مطيعات لحمهنَّ ودمهنَّ، إنهن ألاعيب الطبيعة وهن يجهلن القوة التي تدفعهن. وإلى القارئ صورة عاطفة من عواطف أحد الأشخاص الذين صورهم «موباسان» في قصته «اليد اليسرى».

«هل تعلم هذه المرأة في معظم الأحوال، هل تعلم هاته النساء، حتى أدق النساء نظراً وأشدهن تراكباً، لماذا يعملن؟ إنهن يجهلن ذلك، كما يجهل الدولاب لماذا يدور في الهواء، فكما تهب ريح غير محسوسة على هذا الدولاب فتدير سهمه المركب من حديد، أو من نحاس، أو من خشب، فكذلك يظهر عامل من العوامل لا تدركه الحواس، فيحرك قلب النساء المتقلب، ويدفع هذا القلب إلى عزيمة من العزائم، سواء أكانت هذه النساء من المدن، أو من الأرياف، أو من الضواحي، أو من الصحراء.

«وبعد هذه الحركات يستطعن أن يدركن، إذا كنَّ يعقلن ويفهمن، لماذا عملن هذا الأمر بدلاً من ذاك، أما في وقت تحركن للعمل فإنهن يجهلن سبب التحرك، لأنهن ألاعيب حواسهن العجيبة، فهن عبدات طائشات يخضعن للحوادث وللبيئات وللانفعالات وللمصادفات التي تهتز منها نفوسهن ولحمهنَّ!».

وفي بعض الأحايين يتصدى الكتَّاب لهوى من أهواء النفس، فيصفون مبلغ تأثيره في النفس، قال «أناتول فرانس» في وصف الحسد:

«يعمل فينا الحسد عمل الملح في الجليد، إنه يحل تجاليد الإنسان بمجامعها، ويعجل في حلها تعجيلاً راعباً، فمثل الحاسد كمثل الجليد، فإن الحاسد ينحل في الوحل، فالحسد نوع من العذاب والعار، والحاسد محكوم عليه بالعذاب الذي يصيب من يريد أن يعرف كل شيء، وأن يرى كل شيء!».

ومرَّات يصف كاتب من الكتَّاب مزاجاً من الأمزجة، فيتجلى في هذا الوصف روح عقيدة فلسفية بجملتها، كما تجلى روح التفاؤل في وصف

السيدة «إيفون سارسي» لمزاج والدها في مقال علق بالحفظ منه ما يلي:

«كان أبي ينهض بأعباء الحياة الثقيلة، والابتسامة على شفتيه، فقد كان جذل الظاهر والباطن، يستقبل المحن وهو هادئ البال، حتى كنت أقول في نفسي: أفلم تجر دمعة في قلبه، وكان ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن، فإذا حدث حادث واستطاع بعده أن يغط قلمه في الحبر، ويتمم مقاله الذي بدأ به، فلم يبال بهذا الحادث مهما يكن عظيماً، ومن رأيه أن لا يهتم الإنسان بأمر قيمته نسبية، فالذين هم من هذه الفطرة سعداء لأنهم يفخرون بسكوتهم في آلامهم. كان قويّ الطبع؛ وما دام قادراً على أن يعارك ويعلم، ويقرع الناس ويقرعوه، ويغمزهم ويغمزوه فالحياة في نظره حسنة جميلة.!».

ولكن التعمق في التحليل لا يظهر في شيء ظهوره في وصف حالة من حالات النفس، كالفرح والكآبة، والتغلغل إلى هذه الحالات، وكشف الغطاء عن دقائقها المتباينة.

شهد مرة «أناتول فرانس» رواية «هاملت» في المسرح الفرنسي في باريز، فتكلم على هذه الرواية في كتاب من كتبه الجليلة (الحياة الأدبية)، قال في جملة كلامه مخاطباً «هاملت» نفسه: «لقد شعرت في رؤيتي إياك يا أميري بفرح كئيب، وهو أكثر من الفرح الفارح».

قسم «أناتول» الفرح في عبارته هذه قسمين: الفرح الكئيب والفرح الفارح أو الفرحان، وهذا غاية في دقة التحليل.

ومن هذا القبيل قوله في الكآبة، وقد تكلم على كتاب من كتب «لوتي» فقال:

«قصَّ علينا «لوتي» أنباء الأسابيع الأخيرة التي قضاها في بلاد

اليابان، إن في قصصه هذا صفحات منتخبة، لكنها غاية في الكآبة، وسواء أوصف البلد المقدس «كيوتو» وألمح إلى معابده الآهلة بعجائب المخلوقات من قديم الدهر، أم صوَّر الجماعات الحسان في «يدو»التي تنسحب على أذيال أوربة في أزيائها ورقصها، أم مثل لنا الامبراطورة في سحرها الغريب، إنه ينشر في صفحاته كآبة غامضة دقيقة نافذة، تغشى قلبك كما يغشى الضباب الجو».

فغموض الكآبة ودقتها ونفاذها غاية في التعمق في علم النفس.

وكما كانت الكآبة في هذا المقام غامضة دقيقة نافذة، فقد كانت في مقام آخر ذات صفات مختلفة عن هذه الصفات، فقد تكلم «أناتول» مرة على «فلوري» الذي كان له في النقد الأدبي وفي الصحافة المقام الأول، كف بصر «فلوري» في أواخر عمره، فكان يزوره «أناتول» في داره، وفي زيارة من هذه الزيارات طاف «فلوري» حول مكتبته، و«أناتول» قابض على ذراعه، يدله على الطريق، فكان «فلوري» يضع يده على كتاب من الكتب فيعرفه بمجرد اللمس، وإنه ليضع هذه اليد على كتاب اسمه «شيشرون» إذ أخذت هذا الشيخ هزَّة، وبعد أن ذكر لأناتول تاريخ هذا الكتاب وكيف صار إليه قال «أناتول»:

«وإنه ليتكلم إذ بلل الدمع عينيه، وكنت معه وحدي لا يراه غيري، فلمسني بيده، فكأنما اجتمعت لي الشيوخ كلهم في صورته، أفلا تلفنا ذكريات شبابنا الطائر بكآبة لطيفة لذيذة في خاتمة حياتنا!».

فأضاف أناتول إلى الكآبة في هذا الموضع صفات اللطف واللذة، وفي موضع آخر جعل لها صفات تختلف عن كل ما تقدم، فقد نشر «موباسان» قصصاً سماها «اليد اليسرى» في الوقت الذي نشر فيه «لوتي» رحلته إلى اليابان وسماها «يابانيات الخريف» فقال أناتول في قصص «موباسان»:

«إنها تترك في القلب أثر الكآبة ولكن «موباسان» لا يفصح مثل «لوتي» عن كآبة الأشياء، ولا يظهر عليه أن تفاوت قوانا وآمالنا يعمل فيه عمله، فالحقيقة أنه خال من القلق، على أنه ليس بجذل، فالكآبة التي ينشرها إنما هي كآبة بسيطة، قاسية، صافية».

وكما يتجلى روح الفلسفة في إمعانهم في بواطن النفس، وفي كلامهم على الغرائز، وفي تصويرهم للأهواء، وفي وصفهم للأمزجة، وفي تحليلهم لحالات النفس، ولدقائق هذه الحالات، فكذلك يتجلى هذا الروح في تعليلاتهم؛ فبعد أن تكلم «أناتول فرانس» على كآبة «لوتي» و«موباسان» أخذ يبسط أسباب هذه الكآبة، فقال:

«لقد لُكنا ثمر شجر العلم، ولم يبق منه في الأفواه إلا طعم الرماد، وضربنا في مناكب الأرض، وخالطنا أمماً شتى، منها السود والحمر والصفر، وبان لنا اختلاف البشرية ورأينا أن هذا الاختلاف أعظم مما كنا نتصوره، ووجدنا أنفسنا أمام إخوان أجانب لا تشابه أرواحهم أرواحنا إلا بقدر ما تشابهها أرواح الحيوانات، ثم جلنا في الأحلام كل مجال فقلنا: ما هذه البشرية التي تتغير سحناتها وأرواحها وآلهتها بتغير مباآتها؟. ولما كنا لا نعرف من الأرض إلا حقولها التي كانت تدر علينا الخيرات، كانت هذه الأرض كبيرة في أعيننا، فلما علمنا أنها ما كانت إلا قطرة طين، فوضع هذا العلم منا، وكنا محمولين على الظن بأن أشكال الحياة والعقل كانت أعظم مما تمثل لنا، وأن في الكواكب والعوالم بمجامعها مخلوقات تفكر، ففهمنا بعد ذلك أن عقلنا صغير، الحياة في ذاتها لا طويلة ولا قصيرة، والرجال الذين تغلب عليهم البساطة فيقيسونها بالنسبة إلى مدتها الوسطى، يقولون وحقاً ما يقولون إن الإنسان إذا مات بعد أن يخطه الشيب فقد شبع من عمره؛ أما نحن

فماذا صنعنا؟ فقد شئنا أن نحزر عمر الأرض القديم، وعمر الشمس، وها نحن الآن نقيس حياة البشر على أدوار طبقات الأرض، وعلى أعمار العوالم، فرأينا بعد هذا القياس أن الحياة قصيرة، غرقنا في بحر الزمن والمسافة، فتبين لنا أنا لم نك شيئاً، فثقل علينا هذا الأمر، ولم نشأ أن نقول شيئاً لكبريائنا فاصفرت وجوهنا، والخطب الجلل إن إيماننا ذهب بذهاب جهالتنا الحسنة، ذهب رجاؤنا واضمحل أملنا، فلم نؤمن اليوم بالذي كان عزاء لآبائنا، وهذا شديد علينا، فقد كان الإيمان بجهنم نفسها يطيب ويعذب.

«ومما زاد في بؤسنا أن تكاليف الحياة المادية أصبحت أثقل من قبل، فإن الجماعات الحديثة قد جوزت ضروب الأماني، فاستثارت بذلك مجهود الإنسان، وأصبح التزاحم على الحياة أشد من كل دهر، وصار الظافرون فيها أكثر حمقاً والمنكرون أعظم انكساراً، لقد أضعنا حب الخير بضياع الإيمان والرجاء، وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البائسة على ظهر هذا البحر، بحر العالم، فمن الذي يأتينا اليوم بالإيمان والرجاء وحب الخير؟».

شاعر بني مروان

عبد أسود أبوه وأمه نوبيان، نصح له شيطانه في الشعر فلقنه أحسن المديح وأحسن النسيب، فأفرغ مدائحه على طائفة من أمراء بني أمية وخلفائهم مثل عبد العزيز بن مروان وأخيه بشر وسليمان بن عبد الملك وأخويه يزيد وهشام، فحبوه وكسوه وأخلوا له مجلسه وأحسنوا جائزته.

قرأت جملة من أخباره في الأغاني فشغلني النظر في محاسن عقله عن النظر في محاسن شعره.

تنهى إلينا من صورة هذا العبد أنه كان أسود، صدعاً، خفيف العارضين، ناتئ الحنجرة، لم يروا قط مثله ولا أشد سواداً منه وتناهى إلينا من لباسه أنهم لم يروا أنقى ثياباً منه ولا أحسن زياً، كان يُرى في بزة جميلة، وكانت ثيابه في بعض الأيام قميصاً قوهياً ورداء وحبرة.

هذا كل ما وقع إلينا من ظاهر شكله ولباسه، ومن نكد الدنيا على هذا العبد أن يضرب عينيه فيرى الفرزدق وجريراً وكثيراً والأحوص والكميت وذا الرمة وغيرهم، فكان الجو غير خال له، سد الأفق عليه شعراء كبار، فاستطاع بفصاحته وتخلصه إلى جيد الكلام وشعره العربي وثنائه الأبيض أن يفتح أبواب هذا الأفق، وأن يجاري ويزاحم من حوله من الشعراء، ولكن الله تعالى اختصه بشيء آخر غير الفن، فلم يبخل عليه بمسحة من العقل، فعاش بفنه جليل القدر في عيون الأمراء والخلفاء وعاش بعقله راشد الأمر في دنياه.

هذا العبد نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان.

أول آية من آيات عقله أنه لما قال الشعر كان شاباً، فأعجبه قوله وهذا شأن كل شاعر في صدر أمره، ولكن نصيباً لم تغره هذه الفتنة، فقد خاف أن يعرض على الناس شعره فيسخروا منه، إما لأنه عبد أسود ليس له هيبة في العيون، وإما لأن الناس لا يعجبهم من شعره ما يعجبه، فما الحيلة وهو يريد أن يعرف مبلغ شعره من القلوب؟ كان يأتى مشيخة من مواليه وينشدهم القصيدة من شعره ثم ينسبها إلى بعض شعرائهم الماضين، فإن استحسنوها نشط إلى الشعر وإن استقبحوها كف عنه، ومن محاسن حظه أن الشيوخ الذين كان يأتيهم كانوا أصحاب ذوق سليم في الشعر، فكانوا يقولون له: أحسنت هكذا يكون الكلام، وهكذا يكون الشعر فنشأت بهذا القول ثقته بنفسه، وطمأنينته إلى شعره، ولكنه على الرغم من هذه الثقة كان الشك يخامره في شعره، فلا بد له من الرجوع إلى غير من رجع إليهم، فلم ير من حوله أنصح له من أخته أمامة، قال لها: أي أخيه إني قد قلت شعراً وأنا أريد عبد العزيز بن مروان، وأرجو أن يعتقك الله به وأمك ومن كان مرقوقاً من أهل قرابتي، إلا أن أخته كانت عاقلة جلدة، فلم يعمل فيها هذا الكلام وخافت على أخيها السخرية منه، فقالت له: إنا لله وإنا إليه راجعون! يا ابن أم! أتجتمع عليك الخصلتان: السواد وأن تكون ضحكة للناس! فلم يجد نصيب مندوحة له بعد هذا الكلام عن أن يسمعها شعره، فلما أنشدها وسمعت هذا الشعر استحسنته وقالت له: بأبي أنت! أحسنت والله، في هذا رجاء عظيم، فاخرج على بركة الله.

خرج نصيب على قعود حتى قدم المدينة فوجد بها الفرزدق في المسجد، فعرج إليه، لأنه لا يزال أثر من الشك في قلبه على الرغم من

نصيحة الشيوخ ونصيحة أخته، فلا بد من معرفة رأي الفرزدق في شعره، عرج إلى الفرزدق وعرض عليه شعره، فقال له الفرزدق: ويلك! أهذا شعرك الذي تطلب به الملوك، قال. نعم! قال الفرزدق: فلست في شيء، إن استطعت أن تكتم هذا على نفسك فافعل.

كيف كانت حالة نصيب بعد سماع هذه الشهادة، انفضخ المسكين عرقاً، وانكسر قلبه، ولكن الله ما أراد أن يمحو اسم نصيب من الشعراء والعقلاء، فقد حصبه رجل من قريش كان قريباً من الفرزدق وقد سمع إنشاده وسمع ما قاله له الفرزدق، فأومأ إليه، فقام إليه نصيب، فقال له الرجل: ويحك! أهذا شعرك الذي أنشدته الفرزدق! قال: نعم! فقال: قد والله أصبت! والله لئن كان هذا الفرزدق شاعراً لقد حسدك، فإنا لنعرف محاسن الشعر، فامض لوجهك ولا يكسرنك!

يعلم الله مقدار السرور الذي دخل على قلب نصيب بعد كلام هذا القرشي، لقد انقطع كل ظن سيء بشعره بعد هذا الكلام، ووقرت في نفسه ثقته بشعره، فليس له بعد تكامل هذه الثقة إلا الخروج إلى الأمراء والخلفاء وإفراغ المدائح عليهم.

أجل، هذا أول مظهر من مظاهر عقله، لم يتهور نصيب في فاتحة حياته، وإنما استعمل عقله وربما أفرط في استعمال هذا العقل، ولكن المسكين لم يفرط عبثاً، فكأنه كان يعلم أنه إذا قدم مصر لمدح عبد العزيز بن مروان وحضر بابه مع الناس فلا بد للقوم من أن يزدروه ويطردوه من الباب وينحوه عن مجلس الوجوه حتى يكون وراءهم، وإذا دخل على عبد العزيز بن مروان فلا بد لعبد العزيز من أن يصعِّد فيه بصره ويصوبه، ثم يأمر بالسرير فيبرز للناس ويدعو بالأسود وهو يريد أن يضحك منه الناس، فكأن نصيباً كان يحس بهذا كله، فلم يشأ

الإقدام على الإنشاد قبل التوثيق من جودة شعره، وقد هيأ الله له أمراء بني أمية وخلفاءهم، فعرفوا قدره ومنزلته فليزاحم الفرزدق وكثيراً، ولينقد الكميت وذا الرمة.

ولئن دله عقله على التوثق من بدء النجاح في الحياة فلقد دله هذا العقل على الرشد في الحياة كلها حتى استمر نجاحه من أول أمره إلى خاتمته. وكأنه كان يشعر بحسن عقله فعرف قدره ولم يتعدَّ حدَّه، فقد نظر إلى الحياة نظرة الفيلسوف الذي لا يطلب فيها إلا هدوء البال، فلم تنزع به همته إلى شيء من مناصب الدنيا، مثل منادمة الخلفاء أو غير ذلك، وإنما كان يكفيه من هذه الدنيا عيش ناعم وفكر هادئ؛ وأية نعمة أعظم من هذه النعمة! فقد دخل على عبد الملك فتغدى معه، ثم قال له عبد الملك: هل لك فيما نتنادم عليه؟ فقال نصيب: تؤمنني ففعل، فقال: لوني حائل وشعري مفلفل، وخلقتي مشوهة ولم أبلغ ما بلغت من إكرامك إياي بشرف أب أو أم أو عشيرة، وإنما بلغته بعقلي ولساني، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تحول بيني وبين ما بلغت به هذه المنزلة منك فأعفاه عبد الملك.

وكما عرف قدره في باب الأمراء والخلفاء عرف قدره في أموره كلها فلم يخرج عنه، فقد كان له ابن خطب بعد وفاة سيده الذي أعتقه بنتاً له من أخيه فأجابه إلى ذلك وعرف أباه نصيباً، فقال له نصيب: اجمع وجوه الحي لهذا الحال، فجمعهم، فلما حضروا أقبل نصيب على أخي سيده فقال: أزوجت ابني هذا من ابنة أخيك؟ قال: نعم، فقال نصيب لعبيد له سود: خذوا برجل ابني هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً، ففعلوا وضربوه ضرباً مبرحاً، وقال لأخي سيده: لولا أني أكره أذاك لألحقتك به، ثم نظر إلى شاب من أشراف الحي، فقال زوج هذا ابنة أخيك وعليَّ ما يصلحهما في مالي، ففعل.

ولم يكن في ظلال النساء أشد منه اشتطاطاً في ظلال الخلفاء، فقد قيل له

مرة إن ههنا نسوة يردن أن ينظرن إليك ويسمعن منك شعرك، فقال: وما يصنعن بي؟! يرين جلده سوداء وشعراً أبيض، ولكن يسمعن شعري من وراء ستر.

ولم تظهر أمارات عقله في تصرفاته وحدها ولكنها ظهرت في جواباته أيضاً، وافى الحج قادماً من الشام في بزة جميلة، فدخل على صديق له وهو يأكل من جماعة فيهم كثير، فدعوا نصيباً إلى الغداء فأكل مع القوم، فرفع كثير يده وأقلع عن الطعام، وأقبل القوم جميعاً على كثير يسألونه أن يأكل، فأبى، فتركوه، وأقبل كثير على نصيب فقال له: والله يا أبا محجن إن أثر أهل الشام عليك لجميل، لقد رجعت هذه الكرة ظاهر الكبر، قليل الحياء فقال له نصيب: لكن أثر الحجاز عليك يا أبا صخر غير جميل، وإنك لزائد النقص، كثير الحماقة!

وقال له مسلمة يوماً: أنت لا تحسن الهجاء، فقال: بلى والله! أتراني لا أحسن أن أجعل مكان: عافاك الله، أخزاك الله، قال: فإن فلاناً قد مدحته فحرمك فاهجه، قال: لا والله، ما ينبغي أن أهجوه، وإنما ينبغي أن أهجو نفسي حين مدحته، فقال مسلمة: هذا والله أشد من الهجاء.

ومن كانت هكذا جواباته فلا خوف عليه إذا عيروه العبودية، فإنه يعرف كيف يدفع كلامهم، قال قائل له: أيها العبد، مالك وللشعر؟ فقال: أما قولك: عبد، فما ولدت إلا وأنا حر، ولكن أهلي ظلموني فباعوني، وأما السواد فأنا الذي أقول.

وإن أك حالكاً لوني فإني بعقل غير ذي سقطٍ وعاء

هذا يسير من عقل نصيب، شاعر بني مروان، فهل بلغ كثير منا معاشر البيضان من جودة التصرف في الفعل وفي القول ما بلغه هذا العبد، أحد عقلاء السودان!

الأدب الخالد

ألا لا يفزعن جمهور القراء الكرام من هذه المقدمة، فإذا وجدوا فيها كلاماً على الهندسة فسرعان ما أنقلهم منها إلى الأدب، ثم إلى الحياة نفسها، لقد أحببت من أيام أن أجدِّد عهدي بطائفة من مبادئ العلوم التي قرأتها من ثلاثين سنة، وأن أُقايس بين أساليب التدريس في القديم والحديث، فوقع إليَّ كتاب فرنسي يبحث عن قواعد الأميركان في التربية والتعليم، وهذا ما جاء في بعض فصول تدريس الهندسة.

«إنّك لا تستطيع أن تحصِّل الهندسة بمجرد قراءة ما تشتمل عليه كتبها من البراهين أو بمجرد ما تسمعه من أفواه أساتذتها، فيجب عليك استتمامها بأعمال مستقلة جذّابة، محركة، فغرض الهندسة في المدارس الأميركية، تنمية القريحة المبدعة في التلاميذ، وأدواتها بسيطة، محسوسة، وهي تتضمن عدداً لا نهاية له من الترتيبات البسيطة أو المركبة، فليس لمبادئ الهندسة طريقة عامة في براهينها، فكل قضية من قضاياها يجري البحث فيها على وجه يختلف عن غيره الاختلاف كله، أو بعضه، واختراع هذه الطرائق في البراهين إنما هو رياضة عقلية أعظم شأناً من إتباع طريقة عامة.

يذهب الأميركان في تدريس الهندسة المجسمة من المبدأ الآتي: أشكال الهندسة المجسمة لا يمكن رسمها بأية آلة من آلات الرسم كالمسطرة والبركار وما شابهها، وإنما ترسم هذه الأشكال بخطوط

ومسطحات مادية، بقضبان من فولاذ أو بأشكال مربعة، شفافة من خشب، وفي كل دراسة من دراسات هذه المواد يلجأ الأستاذ إلى آلات كبيرة تكاد تكون ناطقة، فيجد الطلاب فيها تفسير بعض عناصر المسائل الهندسية، وحل هذه المسائل أو القضايا قبل أن يجدوا هذا التفسير وهذا الحل في البراهين النظرية».

هذا أسلوب الأميركان في تدريس الهندسة، ولا شك في أن الذين قرأوها من ثلاثين سنة لم يكن لهم عهد بمثل هذا الأسلوب، ولكن ليس غرضي التوسع في الكلام على أصل من أصول التربية والتعليم، وإنما أخطر بالي الفصل الذي قرأته فكرة أحاول توضيحها في هذا المقال، فلست أدري لماذا ننفر نحن معاشر الأدباء من ذكر علوم الطبيعة أو الرياضة؟ على أن الأدباء والعلماء يبنون في صناعاتهم على أصول متقاربة، لقد رأينا كيف لا يتم تدريس الهندسة المجسمة إلا بواسطة أشكال مادية تقع عليها العين، وتلمسها اليد، ولو تتبعنا أساليب تدريس كثير من العلوم لوجدنا أن روح العصر يستلزم تدريسها بالأشكال المادية المحسوسة فالكيمياء لا يمكن تعلمها إلا برؤية أجسامها، والأستاذ الذي يهجم على تلاميذه في تدريس الحديد من غير أن يعرض على أنظارهم هذا الجسم لا يكون تدريسه تدريساً.

فالعلوم لا تستغني عن الأشكال والصور، فهي روحها، وهل روح الأدب إلا الأشكال والصور، إنما أشكال العلوم تدركها العين وتلمسها اليد ويشمها الأنف، ويذوقها الفم، وتسمعها الأذن، فالعلماء قريبون من المادة، من الحقيقة، لاصقون بهذه الحقيقة، بالحياة نفسها، وكذلك الأدباء فهم غير بعيدين عن المادة، إنهم لاصقون بالحياة، فروح صناعتهم الأشكال، ولا يمكن أن تجري أقلامهم من دون الصور، وكما أن العلم

إذا جُرِّدَ من الأشكال المحسوسة كان جافاً، فكذلك الأدب إذا جُرِّدَ من الصور كان جافاً، وإذا رجعنا إلى أكابر كتّابنا وشعرائنا وجدنا أن الخالدين منهم إنما هم الذين لجأوا في فيض قرائحهم وصوب خواطرهم إلى الأشكال المحسوسة، وبهذا اللجوء قربوا من المادة، من الحقيقة عينها، فهم وعلماء هذا العصر أشباه، وعلى قدر قرب صورهم من الحقيقة يكون خلودهم، وبحسب بعد أشكالهم عن هذه الحقيقة تقصر حياتهم، ولماذا لا آتي بالأدلة!

لقد قرأت كتب الجاحظ وقرأت شعر المتنبي، فإذا تمثلت بكتابة الأول، وبشعر الثاني، فلأني أدرى بهما مني بغيرهما من الكتاب والشعراء.

من صور الجاحظ تشبيه الذر بالخيط الأسود الممدود، فهو يقول: فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت، وخلفها كالخيط الأسود الممدود، فهذه صور محسوسة، لم يغل الجاحظ في أبوابها ولا في هيئاتها، فالخيط والسواد والمد، كل هذا من الصور التي تراها العين لأول وهلة.

وإنا لنجد صورة بمجامعها على هذا النمط، فمن صوره قوله: البعوضة مع صغر حجمها تفسخ الإنسان في أسرع من الإشارة باليد.. والحية تسقط أسرع من اللمح.. والشعر الذي يكون تحت حنك الكلب كأنه طاقة.. وساقا الكلب كأنهما خشبة من صلابتهما.. والحية انتصبت كأنها رمح مركز أو عود ثابت.

فهذه صور بحذافيرها محسوسة، فالجاحظ يقرِّب تشبيهاته ولا يغلو فيها، بحيث تكون على مقربة من حواسنا، تدركها هذه الحواس دون شيء من النصب والكلفة، فهو في أسلوبه هذا مثله كمثل العلماء، إنه لاصق بالمادة، بالحقيقة عينها، وكما أن أستاذ الهندسة المجسّمة لا

يعرض قضايا هندسته إلا بأشكال مادية، فكذلك الجاحظ لا يعرض علينا أفكاره إلا في صور محسوسة، ولذلك كان قريباً من الحياة، ولذلك كان في جملة الخالدين!

وإذا انتقلنا من أفق النثر إلى أفق الشعر، حيث تكثر الصور والأشكال، رأينا أن هذه الصور لا تقرب من الحقيقة إلا إذا كانت بارعة خالدة، ولا تبعد عن الحقيقة إلا إذا كانت بنت الكلفة، فحياتها ساعة.

فمن صور المتنبي قوله في رثاء محمد بن إسحاق التنوخي:

خرجوا به ولكل باكٍ خلفه صعقات موسى يوم دُكَّ الطور

والشمس في كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمور!

فهذه صور بعيدة عن الحقيقة، عن الحياة نفسها؛ ولبعدها عن الحقيقة كانت بارعة، ولو جرى المتنبي في كل شعره على مثل هذا الأسلوب، فاستكثر من نظائر هذه الأشكال لذهب شعره بذهاب حياته.

ولكنه لما قرَّب صوره من الحقيقة، دوى اسمه هذه التدوية، حتى ملأ الدنيا وشغل الناس، فمن صوره القريبة من الحياة قوله في رثاء جدته:

أتاها كتابي بعد يأس وترحة فماتت سروراً بي، فمت بها غماً

حرام على قلبي السرور فإنني أعد الذي ماتت به بعدها سمًّا

وللمتنبي غير هذه القلائد، فمن هذا كله يتبين لنا أن الأدب والعلم في أمر الصور والأشكال صنوان، فكلما كانت أشكال الأدب قريبة من الأفهام كان الأدب قريباً من الحياة، خالداً خلود هذه الحياة، وما مات كثير من الكتاب والشعراء إلا لأنهم تجنبوا الحياة، فلم يدركوا حقائقها!

غير أن هذه النتيجة التي وصلت إليها ليست بالنتيجة التي أردتها من المقدمة، لقد بعدنا في تربيتنا وتعليمنا عن الحقائق، فحشونا أدمغة أبنائنا

بمواد مجردة جافة، تكاد تكون مثل الأوهام، فسرعان ما اضمحلت هذه المواد في أدمغتهم ولم يبق لها أثر، وبعدنا في أدبنا عن الأشكال والصور القريبة من الحياة، فلم يخلد أدبنا، وكان من عواقب بعدنا في علمنا وأدبنا عن الحقيقة نفسها، بعدنا عن الحياة عينها، عن جوهرها، فقد ملئت أدمغتنا من الأوهام والخيالات البعيدة، حتى أصبحنا من غير أبناء هذه الحياة، فلا نقابل مصاعبها إلا صدمتنا لأنا لم نستعد لها لا في أساليب علمنا، ولا في أساليب أدبنا ولا في أساليب أخلاقنا، فكأننا خلقنا لغير هذه العيشة التي تعيشها أمم الحضارات في عصرنا هذا، لماذا وصل الأميركان وأشباههم إلى ما وصلوا إليه، إنهم لم يدركوا ما أدركوه إلا لأنهم أبناء هذه الحياة، أبناء الأمر الواقع الراهن، إني لم أذكر أساليبهم في تدريس الهندسة المجسمة عبثاً، ولكني ذكرت هذه الأساليب لأنهم يجرون عليها في حياتهم كلها، فهي سرُّ عظمتهم، لقد فهموا دقائق الحياة لأنهم لصقوا بالحقيقة، فإذا نحن لم نسع في علمنا وأدبنا وأخلاقنا في القرب من الحقيقة، من الحياة نفسها، من صورها المحسوسة فما أبعد اليوم الذي نفهم فيه أسرار الحياة!

دنيا الزهاد

من طبيعتنا الانقباض عن هذا الطراز من الأدب: أدب الزهد، وأظن أن السبب في انقطاع ولعنا بمثل هذا الباب إنما هو جفاف فصوله، إنا نحب الألوان والصور والأنغام لأن أعيننا وآذاننا تجد لذتها فيها، والزهد جاف بطبيعته، معرى من هذه المظاهر، ولكن فلنحتمل قليلاً هذا الجفاف وهذه التعرية، ولنعش في دنيا الزهاد والنساك طرفة عين، إني لا أبالغ إذا قلت إنا نجد في هذه الدنيا الحياة بحذافيرها، فنشهد حلاوة صبرها ومرارة جزعها، ونتمتع بلذة هدوئها وألم اضطرابها، ونمتحن عفة الألسن والقلوب فيها، ولنرى ما نراه في حياتنا في كثير من الأحيان من ظهور الإنسان في أمور لا يشتمل عليها في باطنه، أو من قوله بلسانه ما ليس في قلبه، ونظائر هذه الأخلاق والطبائع، ولئن فاتتنا في فصول الزهد الألوان والصور والأنغام التي تتبسط إليها أعيننا وآذاننا فلا تفوتنا بعض أخلاق تأنس بها قلوبنا وأنفسنا.

فلنسرع إلى هذا العالم العجيب، عالم الزهَّاد، ولنذق لذة كلامهم وحلاوة مواعظهم، لا أتعرض في مقالي هذا للزهد نفسه، فإني لا أرى الزهد إلا على نحو ما رآه ابن المبارك الذي قال: أفضل الزهد أخفاه، هذه حقيقة الزهد، أمَّا الظهور في مظاهر لا يحتوي عليها الإنسان في باطنه إنما هو محض الرياء.

غايتي السياحة في دنيا الزهَّاد، ماذا سنجد في آفاقها؟ مرة نجد في

سيرة النساك هدوء الحياة بأجمعها، أية حياة أهدأ من البعد عن الحسد، قال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء قط!

ولا يقدر هدوء بال ابن سيرين حق قدره إلا الذي يعرف أخلاق الحساد ومرارة العيشة التي يعيشونها في سواد ليلهم وبياض نهارهم، ولقد كشف الجاحظ الغطاء عن هذه العيشة لما أفاض في الكلام على تغير لون الحاسد،وعلى شخوص عينيه وإخفاء سلامه، وعلى تراكم الغموم على قلبه واستكمان الحزن في جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه وغير هذا كله من دقائق الحسد التي عالجها الجاحظ والتي لا يستطيع أن يعالجها إلا أشباهه من علماء النفس.

إذا عرفنا هذا كله أفلا نقدّر هدوء حياة ابن سيرين حق قدره إذ أنه لم يحسد أحداً على شيء قط!

ومرة نجد في سيرة هؤلاء الزهَّاد والنساك حلاوة العبر ومرارة اليأس، قال مؤرق العجلي: لقد سألت الله حاجة منذ أربعين سنة، ما قضاها ولا يئست منها!

كل واحد منا يعلم فضل الصبر في هذه الحياة، فأكثر الذين يخفقون في أمورهم لم يوطنوا أنفسهم على الصبر، إنهم يقطعون أملهم في نجاح حاجاتهم من أول صدمة، أما الذين تنجح شؤونهم في الحياة فمعظمهم قد رزقوا جميل الصبر، يخفقون فلا يقنطون، ثم يخفقون فلا يدخل اليأس على قلوبهم، فلا يزال أملهم قوياً حتى يظفروا بحاجاتهم في الدنيا.

وحيناً نرى في دنيا الزهاد حالات نفسية لا يفطن إليها إلا القليل، إنا نعلم أن الإنسان مفطور على حب ما منع عنه، قال يونس بن عبيد: لو أمرنا بالجزع لصبرنا!

وحيناً نرى فيها أدب ضبط اللسان والبعد عن الغيبة، فقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان وخاذليه وناصريه فقال: تلك دماء كف الله يدي عنها، فأنا أحب ألا أغمس لساني فيها!

ولا يعرف فضل عمر بن عبد العزيز في هذا المعنى إلا الذي يخالط الناس ويعاشرهم ويعرف كيف تنبسط ألسن الناس في الناس!

وتارة تنعم النفس في هذا النوع من الأدب: أدب الزهد، بضياء الإسلام ونور الإيمان، فمن قول الحسن:يا ابن آدم! كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارك، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمنك الناس!

فما أكثر الذين لم يسلم منهم جيرانهم وأصدقاؤهم وأقاربهم، وما أكثر الذين لم يأمن الناس شر غوائلهم!

وتارة يسطع في هذا العالم: عالم الزهد ضياء الأخلاق الرفيعة، قال الحسن يا ابن آدم ! إذا رأيت الناس في الخير، فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم فيه!

ولا شك في أن الأمة التي لا يتنافس رجالها إلا في الخير إنما هي تكاد تتصل بأول أفق الملائكة.

وفي بعض الأوقات ظهر هؤلاء النساك والزهاد في أمور لا يشتملون عليها في بواطنهم، فقد مر طارق صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسري وهو في موكوبه بابن شبرمة، فقال ابن شبرمة: اللهم لي ديني ولهم دنياهم! فاستعمل ابن شبرمة على القضاء بعد ذلك، فقال ابنه: أتذكر قولك يوم مر طارق في موكبه! فقال: يا بني! إنهم يجدون مثل أبيك، ولا يجد أبوك مثلهم، يا بني إن أباك أكل من حلوائهم وحط في أهوائهم!

وفي الناس ألوف مثل ابن شبرمة، في الناس كثيرون من ينكرون

شيئاً لم يحصلوا عليه، فإذا حصلوا عليه لم ينكروه فابن شبرمة صورة رجال كثيرين في هذا الزمن وفي أي زمن كان، يسرون غير ما يعلنون، ويضمرون غير ما يظهرون، ولكن فضل ابن شبرمة أنه لم يغالط ولم يكابر بعد أكل الحلواء!

وإني لأحب قبل أن أختم هذا المقال أو أقايس بين نظرة الزهاد وبين نظرة الإنجليز إلى قيمة الدار المعنوية، فالذين درسوا الإنجليزية يعرفون شأن كلمة: «هوم» في هذه اللغة ومعناها: الدار، فهي مقدسة في الأدب الإنجليزي والذين خالطوا الإنجليز في بلادهم يعرفون هذه اللفظة، قال أبو الدرداء: نعم صومعة المؤمن منزل يكف فيه نفسه وبصره وفرجه!

قد يجوز أن تكون نظرة أبي الدرداء إلى المنزل غير نظرة الإنجليز إلى «هوم» ولكن كيف كان الأمر فإن النظرتين مجتمعتان على تقديس المنزل، وإذا كان الإنجليزي ينعم في منزله بالاستقلال كله، ثم بالنظر إلى أهله وزوجه وولده، وإلى فرشه وحديقته، إذا كان يتمتع بهذه الحياة الهنيئة التي لا يجدها إلا في منزله، فإن أبا الدرداء ينظر إلى المنزل نظرته إلى شيء مقدس يروض فيه نفسه وبصره، والسعادة في هذه الرياضة لا تقل عن السعادة التي يجدها الإنجليزي في منزله!

ولو شئت أن أستقصي في ذكر ما يقف عليه الإنسان في دنيا الزهاد من رفعة الأخلاق وهناءة الحياة لفعلت ولكني أردت أن أمسح ذكر هذه الأمور مسحاً دون شيء من الإطناب، ونحن نرى أن كل فكرة من الفكر التي وردت في كتب الزهد تصلح لأن تكون موضوع رواية أو قصة عند الافرنجة، غير أن أكثر أدبنا تركيبي وأدبهم تحليلي، فهم يهجمون على الفكرة فيبسطونها أو يضيقونها. ثم يحللونها أو يركبونها،

وأكثر رواياتهم قائمة على هذا الشكل من البسط والتوسيع والتحليل، ولكن أدباءنا في القديم كانوا يحبون الفكرة مجموعة، ملومة، مجردة، عارية، وخاصة في الزهد، فإن الفن فيه جاف وقد وضح أسباب هذا الجفاف إمام من أئمة الشعراء في هذا الباب وفي غيره وأعني به أبا العتاهية، فهو يرى أن الصواب في الزهد أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس، لأنه ليس من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه، فهذا السبب الذي من أجله نرى دنيا الزهاد مجردة من الأشكال والصور والأنغام، ولكن فيها في عظمة الحياة وبساطتها ما يعوضنا من هذا كله!-

الشياطين في الأدب

لا أعرف لفظة كتب لها نصيب من طول الحياة في أدبنا مثل لفظة الشيطان، فقد لازم الشيطان لغتنا وأدبنا على تعاقب السنين مثل ملازمته لكثير من أعمالنا في جيئتنا وذهوبنا، أو مثل ملازمتنا له إذا نحن أحببنا الإنصاف. امتلأ كتاب الله عزَّ وجل بذكره في معظم سوره الباهرات: سجد الملائكة لآدم إلاَّ إبليس أبى واستكبر، والشيطان هو الذي أزل آدم وزوجه عن الجنة وأخرجهما مما كانا فيه، وهو الذي يعد المؤمنين الفقر ويأمرهم بالفحشاء، والشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر، إذا وعد الشيطان كان وعده غروراً، والخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمله، والشيطان هو الذي يوقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة، والشيطان للإنسان عدو مبين، وهو الذي يدخل النسيان على الإنسان، وهو الذي نزع بين يوسف وإخوته، وهو الذي ينزع بين عباد الله، والمبذرون إخوان الشياطين، والشيطان هو الذي زين لعاد وثمود أعمالهم فصدَّهم عن السبيل، فحزب الشيطان هم الخاسرون، وكفى بالشيطان قبحاً أن شجرة الزقوم طلعها كأنه رؤوس الشياطين!

والخلاصة: الشيطان هو الذي دلَّ آدم على شجرة الخلد وملك لا يبلى حتى أكل وزوجه من هذه الشجرة؛ فالشيطان في كتاب الله مصدر كل شر في هذه الدنيا!

ولم ينفرد كتاب الله تبارك وتعالى بذكر الشيطان، فقد جاء ذكره في كتب أدبنا: استعان به رجال الفن، فجعلوا للشعر شياطين يوحون إليهم شعرهم؛ ولجأ إليه رجال الأخلاق، فإذا أرادوا أن يشبهوا هوى من أهواء النفس بشيء شبهوة بالشيطان فمن قول بعضهم: إن الغضب شيطان فاستعذ بالله منه فالشيطان له نصيب وافر في باب الأخلاق، فإذا سلك حاسد مهاوي الضلالة وورد مقاحم التهلكة، وصار لنعم الله تعالى بالمرصاد، فالشيطان هو الذي أسلكه هذه المهاوي وأورده هذه المقاحم!

واستظهر به أصحاب السياسة؛ فإذا خرج قوم عن طاعة فالشيطان هو الذي أخرجهم عنها، فكم كان الحجَّاج يجد في الشيطان مادة تعينه على تصوير أعمال الناس وأخلاقهم، فمن خطبته بعد دير الجماجم: أن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف، ثم أفضى إلى الأفخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً، وأشعركم خلافاً أخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه...

وإذا سئل أحدهم عن مسئلة فيها أغلوطة قالوا له:

أمسكوا حتى تسأل عنها أخاك إبليس، فإبليس أخو أصحاب الأغلوطات، أي صعاب المسائل.

وكان الشيطان في بعض الأحوال صورة الرجل القوي، الفهم، فقد كان قوم من العرب رؤوس الناس وشياطينهم.

وإذا عجز الشيطان عن شيء فإنه قد عجز عن فتح الغلق وعن حل الوكئ وعن كشف الإباء، قال صلى الله عليه وسلم: أوكئوا السقاء وأكفئوا الإباء وأغلقوا الأبواب وأطفئوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يحل وكيئاً ولا يكشف الإناء!

وإذا فر من شيء فإنه يفر من الأذان.

وقد كان الشيطان في بعض الأحيان مادة للأسماء، فقد سمَّوا: شيطان الطاق.

هذا نبذ من ذكر الشيطان في أدبنا، فقد أوحى إلى رجال أدبنا في القديم كثيراً من الأفكار فخلدوه في كتبهم، وجعلوا ذكره بعد ذكره في كتاب الله متردداً بين الخاطر والفكر على ترادف السنين.

وعلى الرغم من هذا كله لم ننفخ في الشياطين شيئاً من الروح في أدبنا، كما فعلوه في أدب الإفرنجة؛ فلا نعرف شيئاً من لباس الشيطان أو من سحنته، ولا نذكر شيئاً من أحاديثه وآرائه؛ فقد كان أدب الافرنجة أفتن من أدبنا في هذا المعنى، استحكمت الصداقة بين طائفة من أدبائهم وبين الشياطين، فكانوا يتصاحبون ويتساقطون الأحاديث؛ وقد وصف هؤلاء الأدباء لنا سحنات الشياطين ووصفوا ملابسهم، ودونوا جملة من أحاديثهم التي كانوا يفيضون فيها.

اقتصر في هذا المقال على ذكر كاتب من كتاب الإفرنجة الذين خالطوا الشياطين وعاشروهم، وهو: جيوفاني بابيني، صاحب كتاب: الشيطان قال لي.

تحدث «بابيني» والشيطان خمس مرات في حياته، وقد طرحت الكلفة بينهما، فقد كان الشيطان يعامل «بابيني» معاملة لا يعامل الناس مثلها، فإذا خلا «بابيني» إليه فتح أذنيه ليسمع أحاديثه.

الشيطان في أدب «بابيني» مديد القامة، أصفر اللون، شاب في عنفوان شبابه، ولكن شبابه من نوع الشباب الذي عاش كثيراً، فهو أكأب من الشيخوخة، ليس في سحنته الصفراء المستطيلة ما يقيّد النظر من الملامح إلا شفتان رقيقتان، تطبقت الواحدة على الثانية تطبقاً

محكماً، وإلاَّ تجعيدة واحده ولكنها عميقة، تذهب من أشفار العين على شكل عمودي، وتضيع في جذر الشعر.

لم يستطع «بابيني» أن يعرف لون عيني صديقة الشيطان لأنه لم يقدر على النظر إليه إلا بقدر طرفة عين، وهو لا يعرف لون شعره، لأنه يغطي رأسه بغطاء من حرير لا ينزعه عن رأسه أبداً ولباسه أسود اللون، ويداه في قفازين لا تخرجان منهما.

لا يهبط شيطان «بابيني» في أيامنا هذه إلى الأرض إلا في الندرة. وقد قال له هذا الشيطان مرة: إني لا أجد في نفسي بعد اليوم اهتماماً بالرجال، فقد يمكن شراؤهم بشيء قليل، وقيمتهم تنقص كل يوم، فليس فيهم روح ولا حياة.

ومع هذا كله فقد يغلب على هذا الشيطان الضجر في بعض الأوقات في بلده الذي يزدحم الناس فيه، فيهبط إلى الأرض، ولكن لا يشعر به أحد لأن الناس أصبحوا لا يعرفونه، وهم يمرون به فيظنونه واحداً منهم، فيبتسمون في وجهه، ويسلمون عليه؛ أما «بابيني» فإنه يحس بالأثر الذي يتركه الشيطان وراءه، ويجهد في لقائه وألفته، بسبب ما يجده في هذه الألفة من السرور، وهو لا يعرف حديثاً ألذ وأنفع من حديثه، إنه من طراز هذه الأحاديث التي تجعلنا نفهم العالم وندركه وخاصة العالم الذي نشتمل عليه وليس في كتب المكتبات ما يبلغ بنا هذا الفهم وهذا الإدراك!

لم يصادف «بابيني» مخلوقاً أشد مسامحة من الشيطان، فالشيطان يعرف ظلم الناس وشرهم وفحشاءهم وحيوانيتهم، ولكنه لا يعجب من أعمالهم ولا يستفزه شيء من الغضب عليهم؛ إنه هادئ الطبع، مبتسم، وإذا جرى ذكر الله عز وجل على لسانه فإنه يقر بأن الله عادل كل

العادل في دحرجته من رأس السماء، لأن الملك لا يستطيع أن يرى حوله مخلوقات أصحاب عنجهية، خارجين من طاعته، فقد قال لبابيني: لو كنت بدلاً من الله تعالى لأذقت المتمرد العاصي أشد العذاب، فقد كنت أمنعه عن كل عمل وعن كل حركة، أما الله تبارك وتعالى فقد رأف بي وعطف علي، فمهد لي سبيل الصناعة التي خلقت لها.

يعطف شيطان «بابيني» على الناس عطفاً فيه تهكم واحتقار، خلق هذا الشيطان ليكون جزاراً للبشر، ولكن العادة جعلته على طول الأيام أقل قساوة وفظاعة؛ فهو اليوم ليس بالشيطان الذي كان يجرُّ ذنبه وراءه وحمل قرونه كما صوروه من أحقاب بعيدة؛ ليس بالشيطان الذي كان يدخل الأديرة ليداعب العذارى، أو يذهب إلى الصحراء ليضل النساك. لقد فهم هذا الشيطان وأدرك أن النزغ بين الناس أصبح عملاً لا فائدة فيه، لأن الناس يضلون بطبائعهم وغرائزهم، فهو لا يحتاجون إلى نزغ الشياطين، إنه يتركهم وهدوءهم، فيتبعونه كما يتبع الماء منحدره؛ وهو لا ينظر إليهم نظرته إلى رعية طائعة تدفع ما عليها من الخراج دون شيء من البربرة؛ لقد نشأت في قلبه في هذه الأيام الأخيرة شفقة على معاشر الرجال، لا تهدم الاحتقار الذي يحتقرهم إياه ولكنها تخفّف من هذا الاحتقار وتحجبه!

فمتى نجد في أدبنا حياة مثل هذه الحياة!

مجلة الثقافة

القاهرة

بلاغة الصدق

بقي في نفسي بعد سفرة من سفراتي إلى العراق أثر بيت من الشعر لم يمحه شيء على الرغم من الصور الكثيرة التي مرت على هذه النفس. كنا ثلاثة في سيارة ذاهبين في نزهة من بغداد إلى الحلة، وكان أحدنا، وهو بغدادي المولد، كثير المحفوظ، فكان ينشدنا على الطريق ما يحفظه من الشعر، وصوته الحسن يزيد في محاسن الشعر الذي ينشده. ولما طوت بنا السيارة الفلوات والصحارى أفرغ هذا الصديق في مسامعنا قصيدة لدعبل، منها هذا البيت:

بنات زياد في القصور مصونة وبنت رسول الله في الفلوات

من ذاك اليوم بقي بيت دعبل في ذهني. إني لم أر القصور التي صانوا فيها بنات زياد، ولكني رأيت الفلوات التي شتتوا فيها بنت رسول الله، وقد يجوز أني في طريقي من بغداد إلى مكة مررت بالفلوات نفسها التي أشار إليها دعبل في شعره.

فقد عرفت كآبة هذه الصحارى وعرفت كثيراً من متاعبها، ولماذا بقي في ذهني بيت دعبل، على أني حفظت من الشعر شيئاً كثيراً، ولكن السنين محت هذا المحفوظ إلا أقله. فليس في بيت دعبل تشبيه حسن من التشبيهات وما أظن أن فيه أي باب من أبواب البديع، على قلة نصيبي من معرفة هذه الأبواب على التفصيل؛ وكيف كان الأمر فليس فيه صورة شعرية من هذه الصور التي تعودنا أن تسكرنا برنات ألفاظها.

ولئن لم يكن بيت دعبل أبلغ بيت قالته العرب، فإنه في أبلغ الشعر، انه خالد في اللغة العربية خلود هذه الفجيعة الحمراء التي فاضت فيها دماء طاهرة، وسكبت فيها دموع نقية، وأعني بها فجيعة الحسين. لم تأته البلاغة من محاسن التشبيهات والكنايات والاستعارات، فهو مجرد من هذا كله؛ ولم تأته البلاغة من ألفاظه الجزلة الفخمة، فلست أعرف ألفاظاً أسهل من ألفاظه؛ ولم تأته البلاغة من دقة معانيه، فلست أعرف معاني أظهر من معانيه؛ ولكن البلاغة أتته من وجه آخر، فقد أتته من صدق المعنى الذي صوره، من عظمة هذا المعنى، من بساطته، وأظن أنا لا نرى البساطة في الحياة إلا رأينا العظمة في ظلالها.

لست في مقام المؤرخ، فلا أتعرض لأمر معاوية وعليّ ولا أتعرض لمقتل الحسين عليه السلام، كل هذا أتركه للتأريخ، فإن موضوعي: بلاغة الصدق، فبيت دعبل بليغ لأنه صادق. إن هذه الدماء التي سفكت في الفلوات، وهي دماء المسلمين، قادرة على أن تفجر دموع العيون من دون أن تحتاج إلى شيء من زخرفة الكلام، فأي قلب لا يحزن عليها، وأي عين لا تدمع لها، سواء أكان هذا القلب هواه في عبيد الله بن زياد أم كان هواه في الحسين؟! أي قلب لا يذوب لشتات الحسين وأطفاله في الفلوات؟! إن بيت دعبل، على بساطة معانيه، وعلى سهولة ألفاظه خليق بأن يستثير أرق النفوس، وألطف القلوب. فالبلاغة الكاذبة قد تعمل عملها في النفوس، ولكن هذا العمل لا يلبث أن يزول أثره، لأن هذا النمط من البلاغة يلبس الأمور لباساً لا يناسبها، فلا يلبث تنافر الأمور ولباسها أن تظهر مقابحه للعيون؛ أما البلاغة الصادقة فإنها إذا عملت في القلوب عملاً دام عملها السنين كلها، لا بل الدهر كله، لأن اللباس الذي تخلعه على الأمور إنما هو اللباس اللائق بهذه الأمور، تستحسنه

العيون في كل حين فليس للنفس عنه نبوة. لم يحتج دعبل في بيته إلى بلاغة، لأن الفجيعة التي قيل فيها دونها كل البلاغات، فعظمة معانيها ألقت على ألفاظ البيت عظمة مثلها، فتناسبت بساطة الصورة وعظمة المعاني الصادقة، فخلد لبيت دعبل هذا الخلود!

وفي كتب أدبنا أمور كثيرة من هذا الشكل: كان سيف الدولة يميل إلى أبي العباس النامي ميلاً شديداً، إلى أن اتصل المتنبي بسيف الدولة، فمال عن النامي إليه فغاظ ذلك أبا العباس؛ فلما كان ذات يوم خلا بسيف الدولة وعاتبه وقال: الأمير، لم يفضل على ابن عيدان السقاء؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه فلجّ وألح عليه وطالبه بالجواب، فقال سيف الدولة: لأنك لا تحسن أن تقول كقوله:

يعود من كل فتح غير مفتخر وقد أغنّ إليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضباً.

فبيت المتنبي على ما أعتقد خال من أي تشبيه حسن ومن أية استعارة، فلماذا استحسنه سيف الدولة ؟ أظن أنه لم يبلغ من نفسه هذا المبلغ إلا لأنه صادق البلاغة لا كاذبها، فسيف الدولة عظيم في بطولته، عظيم في أعماله فلا تحتاج عظمته إلى بلاغة كاذبة، وهذه العظمة هي التي صبغت بيت المتنبي بهذا الصباغ البهيج حتى وقع من سيف الدولة هذا الموقع، وهو ليس بقصير الباع في معرفة البلاغة وأساليبها، ولكن عظمته نزهته عن حب كل بلاغة كاذبة، وحببت إليه كل بلاغة صادقة، حببت إليه البساطة، والبساطة أخت العظمة!

غير أني لم أكتب هذا المقال لأقرر فصلاً من فصول البلاغة، فلست من فرسان هذا الميدان، وإنما موضوعي: بلاغة الصدق. وكما تكون هذه البلاغة في الأقوال فقد تكون في الأعمال، وربما كانت بلاغة الصدق في العمل أجل من بلاغة الصدق في القول!

قرأت أخبار الرئيس «سالازار» مصلح البرتغال. لقد كان هذا الرئيس أستاذ الحقوق في جامعة «كويمبرة» ثم كان نائباً وهو ابن أربعين سنة، وترك مجلس النواب من أول جلسة، ثم كان وزير المالية سنة ١٩٢٨ واشترط في وزارته شروطاً، منها مراقبة النفقات بمجامعها، ومنها أن الوزير كائناً من كان لا يجوز له أن يجمع أمراً من الأمور إلا بعد أن يوافقه «سالازار» عليه، وقد وضّح في بلاغ من بلاغاته المبادئ القاسية التي بنى عليها سياسته في إصلاح الحياة المالية والحياة الاقتصادية في الأمة.

وأعرب عن حاجته إلى ثقة الشعب المطلقة به، على أن تكون هذه الثقة مملوءة هدوءاً وصفاء، وبين أنه لا يميل من نفسه إلى الحكم، وأنه لم يرض به إلا من أجل مصلحة البلاد، فإذا شاكسوه في خلال قيامه بالواجب فإنه يتخلى عن الحكم ويعود إلى منبر التدريس.

إني أرى في الكلمات الأخيرة أصفى صورة من صور بلاغة الصدق في العمل، لم يمل هذا المصلح إلى ما مال إليه نظراؤه من سفك الدماء وتخريب البلاد، ولم يحتج في بياناته إلى ما يحتاج إليه غيره من تزويق وتنميق؛ فقد رأى أن البساطة في العمل منتهى البلاغة فيه وهذه البساطة ناشئة عن الصدق فاستغنى «سالازار» عما لم يستغن عنه غيره لأنه صادق في عمله، فإذا صدعت البلاد بما يأمر استخرج مكنونه في خدمتها، وإذا عاسروه ألقى مقاليد الرياسة وعاد إلى التدريس. لقد تم الإصلاح على يديه دون أن يحتاج إلى البطش،تم هذا الإصلاح بفضل طرائقه المستقيمة وأحذقها في أوربا، وكانت في الوقت نفسه أحزمها.

إني لا أشك في صحة هذا الكلام، لأن الرجل الذي تلقى إليه مقاليد الأمور فيوطن النفس على صدق الخدمة، فإذا ضايقوه عاد من نفسه إلى صناعته

الشريفة وهي التدريس من دون محاولة من المحاولات، ومن دون دسّة من الدسات، إنما هو رجل صادق في العمل، وبلاغة صدقه في العمل أغنته عن كل بلاغة كاذبة في القول.

وسواء أكانت البلاغة ناشئة عن الصدق في القول أم الصدق في العمل، إنها والبساطة صنوان. فقد رأينا مقدار بساطة الرئيس «سالازار» في قوله وفي عمله. وقد قدر لي من تسع سنين أن أزور عواصم كثيرة في أوربا، وإذا رجعت إلى خواطري التي دونتها في رحلتي إلى «لندن» فإني أجد فيها ما يلي:

كل شيء في «لندن» بسيط حتى هذا الفندق الذي نزلت فيه، وحتى هؤلاء الفتيات النظيفات اللواتي يخدمن فيه، وحتى هذه المآكل، ولكن بساطة هذا الفندق وهؤلاء الخدم وهذه المآكل لا تخلو من مظاهر العظمة!

ومن جملة هذه الخواطر أيضاً:

كل شيء في «لندن» عظيم، حتى مبانيها، إنك لا تجد في هذه المباني العظمة التي تريدها في زيادة الزينة أو في زيادة الرونق، أو في زيادة الفخامة، ولكنك تجد فيها البساطة وهي مادة عظمتها!

إني لا أريد التبسط في هذا الوصف، فها أنا أطوي الدفاتر التي دونت فيها أمثال هذه الخواطر وأعود إلى موضوعي، لا بل أختم موضوعي بهذه الكلمات: إنا لا نكون بلغاء في أقوالنا وفي أعمالنا إلا إذا كنا صادقين في هذه الأقوال وفي هذه الأعمال، وقد يستغني صدقنا عن كل بهرج، ولكنه لا يستغني عن شيء من البساطة، فعلى قدر بساطتنا في القول وفي العمل وفي الحياة نفسها تكون عظمتنا!

مجلة الثقافة

المجانين في الأدب

لم يمهل أدبنا أخبار المجانين، فقد كان لهم نصيب غير قليل من رجال الأدب في قديم الدهر. كان هؤلاء المجانين مصدر وحي لبعض الشعراء أمثال أبي نواس والرقاشي، فقد قالا على لسان فئة منهم أشعاراً شاعت في الناس، وكانوا مادة الضحك والإضحاك، فقد فرَّجوا كثيراً من غموم القوم، وكانوا موضوع عبث الصبيان، فقد سخروا منهم، وأسمعوهم ما يكرهون، وآذوهم، وكانوا ينبوع لهو الخلفاء والسلاطين، فطالما سمعوا نوادرهم، وأنسوا بها وانبسطوا إليها. وقد رويت لهؤلاء المجانين أشعار وصدرت عنهم روائع الحكم، وتدفقت من ألسنتهم جوابات عجز عنها العقلاء.

إلا أن أدبنا انتفع بهم أكثر من انتفاعهم به، أخذ عنهم أشياء كثيرة ولم يعطهم شيئاً: روى كلامهم ونوادرهم، وجعل هذا الكلام وهذه النوادر في باب الفكاهة حتى يستريح إلى الهزل من استكده الجد من القراء؛ فلم ينصفهم في جنونهم، ولم يعرض سيرهم وأخبارهم في معارض ناطقة. وهذا النحو من الأدب لم يكن ذائعاً في القديم، فهو من نتائج الأدب الحديث، أدب الفرنجة، الذين لم ينظروا إليهم في قصصهم ورواياتهم نظرتنا، ولم يسيئوا إليهم إساءتنا؛ فقد أحبوهم في مؤلفاتهم، والتمسوا لهم العلل في جنونهم، وجعلوا في المراتب التي يستحقونها؛ ومنهم من ذهب أبعد من هذه المذاهب، منهم من جعلهم في مراتب سائر الناس، لا بل جعل الناس كلهم مجانين!

أجل، لم يكن نصيب المجانين من أدباء الفرنجة نظير نصيبهم من أدبنا، فقد وضعوا الروايات البارعة في وصفهم وتصويرهم؛ من جملتهم الكاتب الإنجليزي الكبير «شارل ديكنس»، فقد ذكر «أناتول فرانس» وهو الذي أوحى إلي هذا المقال، وعنه اقتبست هذه الأفكار، «دينكس» أحب المجانين، ووصف في إحدى رواياته براءة الرجل الصالح، السيد «ديك».

كان «ديك» مجنوناً ولكنه رجل ناصح، لأن العقل الوحيد الذي بقي له إنما هوى العقل الصادر عن القلب، وهذا النوع من العقل لا يغش أبداً؛ إن صاحبه يلتمس الخير ولا يريد السوء بأحد، وفي هذا الطراز من الأخلاق طراز من العقل لم يبلغه كثير من العقلاء. ومن محاسن حظ «ديك» أنه ولد في بلاد الإنجليز حيث يجعلون لحرية الرجل مقاماً رفيعاً، وحيث لا ينظرون إلى غرابة الطبع نظرة سيئة، فإنهم يجلونها. وما هو الجنون، إن هو إلا غرابة العقل. وقد ميز «أناتول» الجنون عن ضياع القوى العقلية بأجمعها؛ فالأول يختلف عن الثاني، فما الجنون في نظره إلا استعمال هذه القوى على صورة غريبة، منفردة!

من هذا يتبين لنا أن المجانين لم تكن منزلتهم في أدب الفرنجة مثل منزلتهم في أدبنا؛ فلم تكن طائفة منهم في روايات الفرنجة إلا جماعة يختلفون عن الناس بطبائعهم الغريبة لا غير. ومثل هذه النظرة لا نجدها في كتب أدبنا القديم.

وقد قصّ علينا «أناتول» قصة مجنون عرفه في صباه. جُن هذا المسكين لما بلغته وفاة ولده الوحيد، وكان جنونه قائماً على شكل لباسه، فقد كان لباسه مؤلفاً من قماش فرش النوم؛ كان الصبيان يتبعونه في الحي ويصيحون به صيحات مزعجة، ولكنه كان يجمع بين الرقة والشدة، فكان يدفع عنه أذى الصبيان بشيء

من التهويل دون أن يمسهم بسوء، وإنه بعمله هذا لقدوة صالحة لرجال الشرطة. قص «أناتول» قصة هذا المجنون، وتفنن خاصة في دقة تصوير نزع ثيابه إذا دخل دار صديق له، ومثل هذه الدقة لا يقدر عليها من كتابنا إلا من هو في طبقة الجاحظ. فإذا نزع هذا المجنون ثيابه عنه، ووضعها في مكان، وعني بوضعها عاد رجلاً من أعقل الناس، فكأن جنونه كان في هذا الشكل من الثياب التي يلبسها؛ فإذا فرغ من نزع ثيابه أفاض في مجامع الموضوعات إفاضة تدل على فرط عقله وذكائه، فقد كان عالماً ملأ عقله من كل شيء يستطيع أن يوضح به العالم والناس، وقد اختص بأخبار الرحلات.

كان يعرف اللاتينية واليونانية، وقد قرأ عليه «أناتول» هاتين اللغتين، وانتفع به كثيراً؛ وكان بارعاً في الحساب وله ذاكرة لا تخونه، فقد كان يذكر حوادث حياته بحذافيرها، ما خلا الحادثة التي قلبت عقله، فكأن وفاة ولده قد محيت من ذاكرته، فلم ينبس في حياته بكلمة تدل على أنه يذكر هذا المصاب الأليم، وكان معتدل المزاج، جذله، تؤنسه الصور اللطيفة المضحكة.

وبعد أن لبس هذا الشكل من اللباس عشرين سنة، صيفاً وشتاء، ظهر ذات يوم في شكل من الثياب ليس فيه ما يضحك الإنسان، فتغير مزاجه بتغير ثيابه، وغلب عليه الحزن والصمت؛ فكانت تخرج منه بعض كلمات تدل على قلقه ورعبه، فقد تغير وجهه واسودت شفتاه وتهدّلتا، وأمسك عن الطعام؛ وذكر ذات يوم ولده الذي فقده، وفي الصباح وجدوه مخنوقاً في غرفته.

ظلت ذكرى هذا الشيخ تستعطف «أناتول» على المجانين الذين يشبهونه، وهذا النمط منهم قليل، إذ أن مثل المجانين كمثل سائر الناس، فالصالحون منهم قليلون. وقد يزور الإنسان مارستانات شتى من دون أن يجد فيه شيخاً ثانياً مثل هذا الشيخ، أو مجنوناً آخر مثل «ديك».

كلا، ثم كلا، لم نقص في أدبنا أخبار المجانين على هذا النحو من القصص،

فلم يظهر عطفنا عليهم كما ظهر في هذا الكلام، ولكن هذا العطف لم يظهر ظهوره في كلام «أناتول» إلا بعد أن قرأ رواية لأحد كتاب فرنسا، اسمها «المجهول»؛ وما هذه الرواية إلا قصة جنون، ولكنها قصة مخيفة. فبعد أن قرأها «أناتول» شعر بنوعين من الشعور: أحس بالخوف وأحس بازدحام الأفكار في صدره؛ أما الخوف فإنه لم يشأ أن يخوف القارئ كما خوفه صاحب الرواية؛ وأما الأفكار التي ازدحمت في صدره بعد قراءة الرواية فهذه جملة منها:

ذكر «أناتول» أنه لا يستطيع أن يتملص من العطف على المجانين الذين لا يسيئون كثيراً؛ أما انقطاع الإساءة، فهذا عمل لا يقدر عليه الناس، لا عقلاؤهم ولا مجانينهم، إذ أنه لا يمكن أن يعيش الناس من دون الإساءة.

لا يريد «أناتول» أن نبغض المجانين، أفلا يشبهوننا؟! ومن ذا الذي يفخر بأنه ليس بمجنون في ناحية من النواحي؟ لقد فتش في بعض المعاجم عن معنى الجنون فلم يجده، والتعريف الذي وجده فيها لا معنى له. فإذا لم يكن الجنون اختلالاً من ناحية التشريح فإنه يبقى من دون تعريف.

إنا نقول: هذا رجل مجنون، إذاً لم يكن تفكيره مثل تفكيرنا، لا زيادة ولا نقصان. ولكن أفكار المجانين من حيث الفلسفة مشروعة كلها مثل أفكارنا، فإنهم يتصورون العالم الظاهر بحسب الانفعالات التي تحدث فيهم من هذا العالم، وهذا ما نصفه نحن معاشر العقلاء؛ فإن العالم ينعكس إليهم على صورة تختلف عن صورة انعكاسه إلينا، فنقول إن الصورة التي جاءتنا عن هذا العالم صحيحة والصور التي جاءتهم عنه غير صحيحة. وفي الحقيقة ليس بين هذه الصور ما هو صحيح على وجه الإطلاق، وليس بينها ما هو غير صحيح على وجه الإطلاق، فصور المجانين صحيحة في نظرهم، وصورنا صحيحة في نظرنا. وقد قص «أناتول» بعد هذا الكلام حكاية المرايا، ووددت لو أنني

أذكرها في هذا المقام، ولكني دونتها في إحدى مقالاتي في هذه المجلة: في عالم الزوايا. وبعد أن قص هذه الحكاية قال: إني أهديها إلى الأطباء الذين يحجزون المجانين في المارستان، لأن أهواءهم وعواطفهم تختلف عن أهواء هؤلاء الأطباء وعن عواطفهم؛ فكل من كان مبذراً أو عاشقاً في رأيهم مجنوناً، كأن لم يكن في التبذير أو في العشق علل تشبه العلل في البخل أو في الأثرة.

إنهم يرون أن المجنون من يسمع مالا يسمعه الناس، أو من يرى مالا يرونه. على أن سقراط كان يستشير شيطانه، و «جان دارك» كانت تسمع أصواتاً لم يسمعها الناس، أفلسنا كلنا من هذا القبيل، أصحاب رؤى وأحلام؟! هل نعرف أي شيء عن العالم الظاهر؟ هل نشعر بشيء في حياتنا كلها غير الشيء الذي تشعر به أعصاب سمعنا وبصرنا في اهتزازات الصوت والضياء؟ حقاً إن شعورنا من هذا الوجه إنما هو شعور ثابت، عادي عام، أما شعور المجانين فإنه نادر، شاذ، منفرد، وبهذه الصفات يعرف المجانين!

لا أريد أن أتبسط في هذا الموضع أكثر مما فعلت، فماعرف المجانين في القديم والحديث عطفاً عليهم مثل هذا العطف؛ وكم يكون إعجابهم بأناتول فرانس عظيماً إذا قرأوا عبارته في مقالة كتبها بعد حضور رواية «هاملت»، وهذه العبارة قالها في صفحة خالدة في مخاطبة هاملت والدفاع عن أقواله وعن أفعاله: من منا ليس بمجنون!

الثقافة